سورة القيامة

دراسة بلاغية تحليلية

د.إبراهيم بن منصور التركي
كلية العلوم العربية و الاجتماعية
جامعة القصيم

سورة القيامة : دراسة بلاغية تحليلية

د.إبراهيم بن منصور التركي
كلية العلوم العربية و الاجتماعية
جامعة القصيم

ملخص البحث :

لقد كان من أجمل الرؤى البلاغية في تراثنا العربي تلك الرؤى التي قامت على أكتاف رجالات جنّدوا كتاباتهم لخدمة كتاب الله الخالد. وأهمها تلك الدراسة الرائعة التي سكها باقتدار ورسمتها ببراعة ريشة الإمام جار الله الزمخشري. ثم سارت المحاولات تترى مروراً بالبيضاوي ثم الشهاب ثم الشيخ زاده ثم الغزنوي وآخرين هنا وهناك. وأولئك كلهم لم يدرسوا النص القرآني دراسة بلاغية مستقلة، وإنما جاءت ملاحظاتهم البلاغية مبثوثة في ثنايا تفسيرهم للقرآن. وهذا البحث المتواضع يزعم أنه يحاول إضافة قطرة زلال إلى هذا البحر البلاغي المتلاطم. فلعلها تكون قطرة غيث نافعة في هذا السياق.

ولتحقيق ذلك رأيت أن أتناول إحدى سور القرآن الكريم تناولاً بلاغياً للوقوف عند البيان القرآني الباهر الذي عبّرت به السورة عن موضوعها. وقد اخترتُ سورة (القيامة) لتكون ميدان هذه الدراسة التطبيقية.

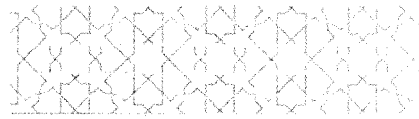

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وأصلي وأسلم على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

لا يشعر بحجم الانبهار الذي وقفه كفار قريش أمام الأسلوب القرآني إلا من استطاع أن يتلمس بعضاً من مواطن الإعجاز البلاغي في التعبير القرآني. والدرس البلاغي المعاصر حريٌّ به أن يمتح من هذا المعين العذب.

لقد كان من أجمل الرؤى البلاغية في تراثنا العربي تلك الرؤى التي قامت على أكتاف رجالات جنّدوا كتاباتهم لخدمة كتاب الله الخالد. وأهمها تلك الدراسة الرائعة التي سكها باقتدار ورسمتها ببراعة ريشة الإمام جار الله الزمخشري. ثم سارت المحاولات تترى مروراً بالبيضاوي ثم الشهاب ثم الشيخ زاده ثم الغزنوي وآخرون هنا وهناك. وأولئك كلهم لم يدرسوا النص القرآني دراسة بلاغية مستقلة، وإنما جاءت ملاحظاتهم البلاغية مبثوثة في ثنايا تفسيرهم للقرآن. وهذا البحث المتواضع يزعم أنه يحاول إضافة قطرة زلال إلى هذا البحر البلاغي المتلاطم، فلعلها تكون قطرة غيث نافعة في هذا السياق.

ولتحقيق ذلك رأيت أن أتناول إحدى سور القرآن الكريم تناولاً بلاغياً للوقوف عند البيان القرآني الباهر الذي عبّرت به السورة عن موضوعها. وقد اخترتُ سورة (القيامة) لتكون ميدان هذه الدراسة التطبيقية.

وقد حرصتُ أثناء البحث على ما يلي:

- بدأت البحث بذكر موضوع السورة وخطوطها العريضة قبل الدخول إلى تحليل الآيات بلاغياً. وفي التحليل البلاغي حرصتُ على الوقوف عند الآيات مفردة، أو مجتمعة إذا كانت تشكّل وحدة معنوية شبه مستقلّة.
- قمت بتبيان معنى الآية أو الآيات قبل الحديث عن بلاغتها إلا في تلك الحالات التي يكون فيها المعنى واضحاً بيناً. ثمّ أتْبَعْتُ ذلك بتناول وجوه البلاغة في الآية، مع محاولة التنبيه في تلك المواضع إلى الاسم البلاغي لتلك الأساليب، بذكر المصطلح البلاغي المعروف له عند البلاغيين.
- استعنت بكلام علماء التفسير من القدامى والمعاصرين في التعرّف إلى الوجوه البلاغية التي تضمنتها الآيات، واجتهدت في بعض المواضع في شرح كلامهم. كما حرصت في مواضع أخرى على الاجتهاد للوقوف على أسرار بلاغية لم يذكروها.

- حتى لا أُثقِل على القارئ أو أطيل في النقول والإحالة إلى كتب العلماء حرصتُ على دمج الكلام المنقول عن أولئك العلماء في نص واحد متماسك، بحيث يبدو للقارئ كأنه كلام متّصل، مع التزامي في كل ذلك بما تقضيه أصول التوثيق العلمي.

أولاً : موضوع السورة وخطوطها العريضة :

تجيء السور المكية ينتظم موضوعاتها في الغالب خيط رفيع يلتف حول المحور العقدي لتجليته وبيانه. والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء أحد المعتقدات الرئيسة التي يلزم المسلم تصديقها والإيمان بها، وهو الموضوع الذي تتحدّث فيه سورة القيامة.

ويظهر الارتباط بين هذه السورة والسورة التي قبلها «سورة المدّثر» من حيث إن كلتيهما تضمّنت الحديث عن اليوم الآخر، ذلك «أن في آخر ما قبلها قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤﴾ [1]. وفيها كثير من أحوال القيامة، فذكر هنا يوم القيامة وجملاً من أحوالها»[2].

والسورة التي بين أيدينا سورة مكية تحتشد آياتها للحديث عن يوم القيامة. فهي تبدأ في أولى آيتين منها بالحديث عن ذلك اليوم وبالحديث عن النفس الإنسانية، ولا يُكتفى بهذه الإشارة العابرة بل «يستطرد الحديث فيها متعلقاً بالنفس ومتعلقاً بالقيامة من المطلع إلى الختام، تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهي»[3].

والحديث الذي أفضى إلى ذكر القيامة – كما سيأتي – هو إنكار المشركين ليوم البعث، إنكار أن يجمع الله العظام بعد أن تكون رميماً. ولذا جاء الرد القرآني مقرراً تلك الحقيقة عبر عدد من الآيات التي تجلّي تلك القضية وتوضّحها.

حيث تصف الآيات الأولى من السورة هول القيامة وشدة بأسائه، فيخسف القمر ويبرق البصر، فيبحث الإنسان عن مكان يفر إليه. ولكن هيهات فالمستقر والرجوع إلى الله ينبئه بأعماله، فلا تنفعه المعاريض والمعاذير وقد شهدت عليه نفسه.

وإذا كان الحديث هنا عن القيامة وأهوالها، فإن ها هنا تخويفاً وتحذيراً ضمنياً للإنسان أن يدركه ذلك اليوم المهول وهو مصرّ على ضلاله وإنكاره وتكذيبه. لهذا ينتقل الحديث في الآيات التالية إلى إيثار الإنسان العاجل ونسيان الموعود الآجل. فتذكر الآيات جزاء من ابتغى بعمله

---

(١) سورة المدثر ٥٣ – ٥٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، المكتبة التجارية، مكة، د.ت ١٠/ ٣٤٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم، جدة، ١٤٠٦/ ١٩٨٦، ٦/ ٣٧٦٦.

وجه الله، وتعرض عقوبة من لم تجاوز نظرته حدود حياته الدنيا. وفي هذا السياق يأتي الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم الاستعجال في تلقي الوحي، فجمع القرآن وحفظه أمرٌ قد تكفل الله به.

وهذا يعني أنه إذا كانت الآيات الأولى قد قررت حقيقة يوم القيامة وجلّتها لمن لا يعلمها أو يتجاهلها، فإن الآيات التالية تأتي لتوضّح الجزاء الذي أعده الله لمن صدّق بتلك الحقيقة وعمل للآجل الذي ادخره الله للمؤمنين، وعقوبة من كذب فعمل لحياته العاجلة.

ثم تتحدث الآيات فيما بعدُ عن جانبين متقابلين : أحدهما، جانب الموت ومفارقة الحياة الدنيا يوم تبلغ الروح الحلقوم ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. والآخر: جانب النشأة الأولى التي خُلق فيها الإنسان من العدم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[2]. فهنا حديث عن نهاية حياة الإنسان وبدايتها، نهايتها بالموت وبدايتها بالولادة. ويأتي ارتباط هذه الآيات بموضوع السورة من حيث تأكيده على أن مَنْ بدأ الخلق، وأعطى الحياة وسلبها قادر على إعادة البعث بعد الموت. ولهذا تنتهي السورة بتساؤل مدوٍّ مفاده: أيعجز من هو قادر على سلب الإنسان حياته، ومن هو قادر على إنشائه بعد أن كان عدماً، أيعجز من هو قادر على ذلك عن إعادة بعثه وجمع عظامه؟!.

وبهذا يتّضح كيف أن الآيات تصبّ جميعها في إثبات قضية البعث وحقيقة يوم القيامة. وكل آيةٍ منها تُسلِم إلى جارتها، وتُفضي إليها عبر تسلسل منطقي، يمكن للذهن تتبّعه وملاحقته. فجميع آيات السورة تصب في موضوعها الرئيس، وتجليه أشد جلاء. غير أن ما يبدو للوهلة الأولى بعيداً عن جو السورة وموضوعها هو قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾[3].

فهذه الآية وما بعدها تبدو وكأنها بعيدة عن جو السورة وموضوعها، ولكن الواقع أنها شديدة الارتباط بهما. وهو ما سيتم بيانه أثناء الحديث التفصيلي عن الآيات.

ثانياً: التحليل البلاغي لآيات السورة :

تبدأ آيات السورة بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾[4]، وتختلف آراء المفسرين حول توجيه دخول «لا» على القسم. وأفضل ما يقال فيها ماذكره العلماء من أنها نافية تفيد تأكيد القسم.

(١) سورة القيامة، ٢٦.
(٢) سورة القيامة، ٣٧.
(٣) سورة القيامة، ١٦.
(٤) سورة القيامة، ١.

إذ «الوجه أن يقال هي للنفي والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾[1]، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول إنّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام يعني أنه يستأهل فوق ذلك[2]. « ذلك أن »إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسَم به. فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية. والمراد أنه – أي المقسَم به – لا يَعْظُم بالقسم لأنه في نفسه عظيم أقسِم به أو لا»[3]. ذلك أن القسم يفيد تعظيم المقسم به عادة، ولكن هذه الصياغة تشير إلى عظم المقسم به في ذاته، حتى كأنه لا حاجة لأن يقسم به لتعظيمه. والآية بهذا تشير إلى أن يوم القيامة لا يُفترَض أن يُقسَم به، ولا يحتاج لذلك، لأنه من الأمور البدهية التي لا يحتاج المتحدّث عنها إلى تأكيد وقوعها بالقسم أو نحوه.

ومن الكلام السابق يظهر أن في الآية خبراً خرج إلى الإنشاء، حيث دلّ على القسم، كما أن في كون القسم بيوم القيامة براعة استهلال؛ لأن غرض السورة وصف يوم القيامة[4].

ثم يقول جلّ وعلا مستعملاً ذات الأسلوب: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[5]، فهنا أيضاً خبرٌ خرج إلى القسم، حيث يُقسِم تعالى بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات وفعل المنكرات[6]. ولابد من تساؤل هنا عن مناسبة الجمع بين يوم القيامة والنفس اللوامة في سياق واحد حتى أقسم الله بهما معاً. فيذكر البيضاوي أن المراد من هذا الجمع مجازاة تلك النفس التي عملت ليوم القيامة[7]. ذلك أن المقصود من البعث وإقامة القيامة مجازاة تلك النفوس، وتمييز المطيعة من العاصية منها[8].

ولعلّ فيه أيضاً تنبيهاً على أن النفس الغافلة اللاهية لا يمكنها أن تتذكّر يوم القيامة، ولكن النفس اللوامة التي تُكثِر من محاسبة نفسها هي التي تعلم وتعمل ليوم القيامة.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾[9] المراد بالإنسان الجنس والهمزة للإنكار[10]،

---

(١) سورة الواقعة، ٧٥، ٧٦.

(٢) الكشاف، جار الله محمود الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، ٤/ ٦٥٩، ٦٦٠ وانظر: تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت، ٥/ ٤١٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٩/ ١٣٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ٢٩/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٥) سورة القيامة، ٢.

(٦) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، جزء تبارك / ص ٧٥.

(٧) انظر: تفسير البيضاوي، ٥/ ٤١٩.

(٨) انظر: حاشية محيي الدين الشيخ زاده على البيضاوي، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا، ٤/ ٥٧٨.

(٩) سورة القيامة، ٣.

(١٠) انظر: فتح القدير، الشوكاني، دار إحياء التراث، بيروت، ٥/ ٣٣٦.

وبهذا يصبح في الآية مجاز مرسل، حيث أطلق الكل وهو يريد البعض، حيث إن فيهم من يحسبُ ذلك، وهو ما يدلّ عليه سبب نزول الآية، حيث يذكر الإمام الواحدي أن عدي بن أبي ربيعة أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: حدثني عن يوم القيامة؟. فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. فقال: أوَ يجمع الله هذه العظام؟! فأنزل الله تعالى آية: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾[1].

وجواب القسم هو ما يدل عليه هذا الكلام، حيث أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة «ليجمعن العظام للبعث» فهذا جواب القسم، والمعنى أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق[2]، وعلى هذا يصبح في استعمال (العظام) مجاز مرسل، أطلق الجزء وأراد الكلّ.

وتلك كانت مشكلة في عقولهم، أنها لا تتصوّر إمكانية جمع العظام البالية. فيردّ عليهم القرآن رداً قاطعاً: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾[3].

وتعبير القرآن بـ (البنان) إما أن يراد بـ«البنان» الحقيقة أو المجاز. فإذا كان المقصود هو حقيقة البنان، فإن التركيب (نسوّي بنانه) يعدّ كناية عن صفة، ذلك أن تعبير القرآن بتسوية البنان وتركيبه -كما يقول الأستاذ سيد قطب- كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق مافيه، وإكماله بحيث لا تضيع منه بنان، ولا تختل عن مكانها. بل تسوى تسوية لا ينقص معها عضو ولا شكله مهما صغر أو دقّ[4].

ولهذا جاء تخصيص البنان بالذكر، لتشير الآية بذلك إلى «بصمة الأصابع التي يتميّز بها الإنسان عن كل إنسان سواه، إذ أن الله تعالى ليس بقادر على إعادة خلق الإنسان وحسب، بل إنه قادر حتى على تسوية بنانه الذي يتفرّد به عن آلاف الملايين، بل عن الناس أجمعين[5]».

إن البنان يدلّ على دقةٍ في الخلق يراها الإنسان ويُبصرها في تلك الخطوط الرفيعة التي في باطن أصابعه، وبهذا فالآية تشير إلى أن الله ليس قادراً على جمع العظام فحسب، بل هو -سبحانه- قادرٌ على إعادة خلق الإنسان بكل التفاصيل الدقيقة الصغيرة، بما في ذلك الخطوط الرفيعة في باطن يديه.

وقد يكون لفظ «البنان» مراداً به المجاز، بحيث يكون البنان هنا مجازاً مرسل، أطلق فيه الجزء مع إرادة الكلّ، أي: قادرين على خلق جسم الإنسان كله. قال الإمام البيضاوي: «قادرين

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، عالم الكتب، بيروت، ص ٣٣١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥ / ٦٣٣.
(٣) سورة القيامة، ٤.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦ / ٨٦٧٣.
(٥) أسرار خلق الإنسان، د.داود سلمان السعدي، دار الحرف العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ، ط٣، ص٢١.

على أن نسوّي بنانه: بجمع سلامياته وضمّ بعضها إلى بعض، كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام[1]». وهذا هو الصحيح والله أعلم.

ثم يُضرِبُ السياق القرآني عما سبق من حديث لتقرير أمر آخر، فيقول تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾[2].

أي أن الإنسان يريد مداومة الفجور في مستقبل أيامه، فلا يترك المعاصي ولا يتوب عنها[3] وفي الآية وضع الاسم الظاهر «الإنسان» موضع الضمير لغرضٍ بلاغي، ذلك أن في «إعادة المظهر – أي الإنسان – ما لا يخفى من التهديد، ونعي قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه»[4].

ثم يقول تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[5]. وقد فصَلَ الآية عن الآية السابقة لأنها «استئناف أو حال أو تفسير لقوله «يفجر»، أو بدلٌ منه والاستئناف بياني، كأنه قيل: «لم يريد الدوام على الفجور؟» قيل: «لأنه أنكر البعث واستهزأ به»[6].

وفي هذه الآية يسأل الكافر هذا السؤال «أيان يوم القيامة؟»، لا على سبيل الاستفهام الحقيقي أو السؤال المجرّد، وإنما على سبيل الاستبعاد: استبعاده حصول ذلك.

إلا أن النظم القرآني يعدل إلى الأسلوب الحكيم، كأنه حمل كلامهم على خلاف الاستهزاء[7]. حيث ينتقل إلى وصف أهوال ذلك اليوم، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾[8].

إذا برق البصر واندهش وتحير لما يرى، أي: «تحيّر فزعاً، من بَرِقَ الرجلُ إذا نظر إلى البرق»[9]، والأصل في هذا أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره ثم استعمل ذلك في كل حيرة وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق كما قالوا قمر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر، وبهذا فهو كناية عن الذهول والحيرة[10].

وخسف القمر فأظلم وبهت ضوءه، وجُمِع الشمس والقمر فتلاشى نورهما. وقد جاء الفعلُ مذكّرا لأنه متقدّم، إذ يجوز فيه التذكير والتأنيث إذا تقدّم، ولتغليب المذكور الآخر

(١) تفسير البيضاوي ٥ / ٤٢٠.
(٢) سورة القيامة، ٥.
(٣) انظر: تفسير الخازن وبهامشه البغوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ٦ / ١٥٢.
(٤) حاشية الشهاب على البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧/ ١٩٩٧، ٩/ ٣٤٠.
(٥) سورة القيامة، ٦.
(٦) حاشية الشهاب، ٩/ ٣٤٠.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٤٤.
(٨) سورة القيامة، ٧ – ١٠.
(٩) تفسير الكشاف ٤ / ٦٦١.
(١٠) انظر: التفسير الكبير، الإمام الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٣٠ / ٩٣.

«القمر» المعطوف على نائب الفاعل[1]. في ذلك اليوم يبحث الإنسان عن المفر والمهرب ولكن هيهات.

ويُلحظ استخدام الأسلوب القرآني تناسب الفواصل في هذه الآيات. كما يلحظ البعد بين الشرط وجوابه، ومجيء الشرط أكثر من جملة كل منها تعمّق سابقتها، لتطويل الشرط من أجل تشويق السامع واستثارة ذهنه وتهيئته لسماع جواب الشرط الذي سيترتب على هذه الأحداث المهولة.

ويلحظ كذلك حذف الفاعل في الآيات التي تتكلم عن يوم القيامة إما على سبيل بناء للمفعول أو الإسناد المجازي. وتلك ظاهرة أسلوبية مطّردة « قلّ أن نخطئها في الحديث عن اليوم الآخر، وهي أن القرآن يصرف الحدث عن محدثه فلا يسنده إليه . وإنما يأتي به مبنياً للمجهول أو مسنداً إلى غير فاعله على المجاز أو المطاوعة »[2]. ففي »البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث بصرف النظر عن محدثه، وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث في طواعية تلقائية، إذ الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير، والأحداث تقع تلقائياً لا تحتاج إلى أمر أو فاعل»[3].

عندها سيتساءل الكافر: «أين المفرّ؟»، بهذا الاستفهام الذي يحتمل السؤال الحقيقي والمجازي، فإذا كان مجازياً فهو دليل على يأسه من الفرار، فهو من باب « قول الآيس، لعلمه بأنه لا فرار حينئذ. وحمله على حقيقته على توهّمه ذلك لدهشته »[4].

ويَرُدُّ السياقُ القرآني على هذا التساؤل بقوله: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾[5]. بهذه الكلمة: كلا!، كلمة ردع في طلب المفر وتمنيه، فـ« لا وزر» أي لا ملجأ يُتخلّص به من هذا اليوم[6]. وهو « مستعار من الجبل، واشتقاقه من الوزر وهو الثقل»[7]. فالمستقر يومئذ إلى الله تعالى. وتقديم الجار والمجرور « إلى ربك » للاختصاص[8]. أي لا مستقر في ذلك اليوم إلا إلى الله. وفي إضافة «رب» إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته[9].

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٥ / ٤٢٠.
(٢) التفسير البياني للقرآن، د.عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١/ ٨٠.
(٣) التفسير البياني للقرآن، ١/ ٨١.
(٤) حاشية الشهاب ٩/ ٣٤٢.
(٥) سورة القيامة، ١١- ١٢.
(٦) انظر: تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث، بيروت، ٨ / ٣٢٨.
(٧) تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢١.
(٨) انظر: حاشية الشيخ زاده، ٤/ ٥٨٠.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٤٦.

ثم يقول تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[1]، في ذلك اليوم يُخبَر الإنسان بكل ما قدم وأخر، يُخبر عن جميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها[2]. ويخبر بما قدمه في حياته من الخير والشر، وبما أخر بعد موته من سنة سنها أو سيئة ابتدعها[3]. وإنباء الإنسان بما قدم وأخّر كناية عن مجازاته على ما فعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر[4].

وتؤكّد الآية على أن هذا الإنباء يشمل كلّ ما فعله الإنسان، ولهذا يأتي التعريف بالاسم الموصول «ما» للدلالة على العموم، ويُستعمَل الطباق «قدّم» و«أخّر» لشمول جميع أعماله التي عمِلها في حياته من بدايتها إلى نهايتها، ويُحذَف المفعول من الفعلين: «قدّم وأخّر» ليعمّ كلّ فعلِ خيرٍ أو شرّ عمِله الإنسان.

ثم يقول تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾[5]، حيث يكون الإنسان هو نفسه بصيراً على نفسه، أي أن جوارحه تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه عليه[6]. والوصف بالبصارة مجاز بناء على هذا التفسير، والتاء في «بصيرة» للمبالغة. وتفيد «بل» الترقي، أي أن الإنسان ينبأ بأعماله، بل هو يومئذ عالم بتفاصيل حاله شاهد على نفسه[7].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾[8] أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه[9]. وهذه الآية تأكيد لما يفهم من مجموع قوله تعالى: ينبأ الإنسان..[10]. ويلحظ في آيات هذا المشهد أن كل شيء سريع قصير: الفقر – والإيقاع – والفواصل – والمشاهد الخاطفة، وكذلك عملية الحساب «ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر» هكذا في سرعة وإجمال؛ ذلك أنه ردٌّ على استطالة الأمد والاستخفاف بيوم الحساب[11].

ثم تُخاطِبُ الآياتِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[12].

---

(١) سورة القيامة، ١٣.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ٤/ ٤٤٩.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر جابر الجزائري، طبعة خاصة بالمؤلف، ١٤١٤/١٩٩٣، ٥/ ٤٧٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٤٧.
(٥) سورة القيامة، ١٤.
(٦) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الطبرسي، دار مكتبة الحياة، ١٣٨٠/ ١٩٦١، ٢٥/ ١٢٧.
(٧) انظر: تفسير أبي السعود ٧/ ٦٦.
(٨) سورة القيامة، ١٥.
(٩) انظر: تفسير الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٠/ ٨٦.
(١٠) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢٩/ ١٤١.
(١١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧٦٩.
(١٢) سورة القيامة، ١٦– ١٩.

وفي سبب نزول هذه الآيات يذكر الإمام السيوطي ما ينسبه إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[1].

إن هذه الآيات تبدأ بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم إعنات نفسه في شأن الوحي وتلقي هذا القرآن، وفي هذا دلالة على أنه لشدة حرص الرسول على استيعاب ما يوحى إليه، كان يحرك لسانه عند الوحي فنهي عن ذلك[2].

ولا بد من سؤال يطرح عن الصلة بين هذا التوجيه للرسول وبين الحديث عن يوم القيامة. يحاول أبو حيان في البحر المحيط أن يلتمّس الرابطة بين هذه الآيات وما قبلها. حيث يقول بأنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته وأنه قاصر شهوته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها[3].

ويحاول الإمام الزمخشري ربط هذا المقطع بما بعده، حيث يذهب إلى أن الارتباط يجيء من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة – في الآيات التي تلي هذا المشهد – وترك الاهتمام بالآخرة[4]. فهذا النهي عن التعجّل في الحفظ –في نظره– هو مدخل إلى النهي عن حبّ العاجلة.

ويعدّ الإمام البيضاوي هذا النهيَ اعتراضاً بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة، لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين، فكيف بها في غيره[5].

وهو ما يومئ إليه الإمام ابن حجر في فتح الباري عندما يلتمس الرابط بين هذا المقطع وغرض السورة ككل؛ ذلك أنه تعالى لما ذكر القيامة وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حبّ العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة. فنبّه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجلُّ منه وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهّم ما يرد منه. والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك فأمر أن لا يبادر إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغ إلى

(١) انظر: لباب النقول، جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٢٤.
(٢) انظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، طبع رئاسة البحوث والإفتاء، الرياض، ١٤٠٣– ١٩٨٣، ٨/ ٦٢٩.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ١٠/ ٣٥٠.
(٤) انظر: الكشاف، ٤/ ١٦٥.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٢.

ما يَرِد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه[1].

وكأن ابن حجر يريد أن يقول إنه لما ذكرت القيامة وأن دافع من لم يعمل لها استعجال الطيبات في الدنيا وغفلة منه عن يوم القيامة، فكذلك كان تحريك الرسول للسانه استعجالاً منه على حفظه وغفلة منه عما يتوجب عليه من الفهم والإصغاء. فلما ذكر أن التشاغل بالدنيا عن القيامة نابع من محبة العاجل على الآجل، ناسب أن يذكر أن تشاغل الرسول بتحريك لسانه تشاغل منه بالحفظ العاجل عن الفهم والإصغاء.

والنهي للرسول بعدم تحريك اللسان نهي رحمة وشفقة لما كان يلاقيه في ذلك من الشدة[2]. والتقديم في الجار والمجرور «به» للاهتمام بشأن الكتاب، وجاز إضماره وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه[3]. وكذلك التقديم في «علينا» إنما هو للاختصاص في الآيتين «إن علينا جمعه»، و« إن علينا بيانه».

وفصَل جملة «إن علينا جمعه وقرآنه» لأنها تعليلٌ للنهي[4].

وقوله تعالى:﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾، أي قرأناه بلسان جبريل عليك[5]، وعلى هذا يكون الإسناد مجازياً هنا[6]. حيث أسند القراءة إلى الآمِر بها وسببها وهو الله جلّ جلاله.

ثم يرجع السياق القرآني إلى ذكر ما كان عليه من الحديث، فيذكر حبهم للعاجلة وتركهم الآخرة، يقول تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾[7]. والخطاب هنا إما أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم فيكون ردعاً عن عادة العجلة، أو للإنسان عن الاغترار بالعاجلة، وتعميم الخطاب إشعار بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال[8]. وكونه للإنسان أولى. وهذا الكلام يشعر بالتوبيخ ، ومناط التوبيخ هو حب العاجلة مع نبذ الآخرة. كما أن فيه التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب في موعظة المشركين، مواجهة لهم بالتقريع لأن ذلك أبلغ فيه[9].

ثم يصف بعد هذا ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق فريقين وجزاء كل فريق[10].

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تبويب وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ٨/ ٦٨٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٥٠.
(٣) انظر: حاشية الشيخ زاده ٤/ ٥٨١.
(٤) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٢.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٢.
(٦) حاشية الشهاب ٩/ ٣٤٣ .
(٧) سورة القيامة، ٢٠ -٢١.
(٨) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٢.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٥١.
(١٠) انظر: تجريد البيان، عبد الله إبراهيم الأنصاري، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ٢/ ٨٠١.

يقول تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]. فوجوه تكسوها النضارة والبهاء، والنضرة كناية عن البهجة والمسرّة، وتعبير عما هي فيه من النعمة[2].

واختلف المفسرون في تقديم المعمول في قوله «إلى ربها ناظرة» أهو للاختصاص أم للاهتمام. حيث يذهب الإمام البيضاوي إلى دلالته على الاختصاص، يقول: «مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه، ولذلك قدم المفعول وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره»[3].

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه للاهتمام بهذا العطاء العجيب وليس للاختصاص؛ لأنهم يرون بهجات كثيرة في الجنة. وجعل الوجوه تنظر إلى الله إعلان بتشريف تلك الوجوه أنها تنظر إلى جانب الله نظراً خاصاً لا يشاركها فيه من هو دون رتبهم[4].

والصحيح ما رآه البيضاوي، حيث يشير في كلامه إلى دلالته على قصرْهم أنظارَهم على الله تعالى، ولكن ليس في جميع الأوقات، وإنما في وقت النظر إليه جل جلاله فقط. وهو ما لم يدركه الباحث المعاصر الذي ظنّ أن المقصود هو قصر نظرهم على الله تعالى في كل الأوقات، وليس الأمر كذلك.

وفي مقابل هذه الوجوه المبتهجة التي تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب، توجد وجوه أخرى باسرة شديدة العبوس، تظنّ أن يُفعل بها فاقرة، أي: «تعلم أنه يفعل بها داهية والفاقرة الداهية»[5]. وفي هذا مقابلة بين حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة. ويُلحظ دقة اختيار اللفظ في قوله: «وجوه يومئذ باسرة»، فلم يقل: «باسلة»، لأن «باسل» أبلغ في التعبير من «باسر»، وقد غلب إطلاقه على الشجاع، فعدل عن الأبلغ لإيهامه غير المراد[6]. وتنكير «وجوه» في الآية للتنويع والتقسيم.

ثم يقول تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾ تبدأ هذه الآيات بـ: «كلا»، وهي ردع صريح للإنسان في إيثاره العاجلة على الآخرة. إن هذه الكلمة بمثابة صرخة تحذير تقول للناس: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت[7]. ثم

(١) سورة القيامة، ٢٢ – ٢٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ٨/ ٣٤٩.
(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٥٢.
(٥) تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٢٩/ ١٩٤.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢٩/ ١٤٦.
(٧) انظر: تفسير أبي السعود، ٧/ ٦٨.

يضمر السياق القرآني لفظ «النفس» حين يتحدث عن بلوغها أعالي الصدر ساعة الاحتضار، وذلك لدلالة الكلام عليها. وفي قوله «بلغت التراقي» كناية عن الإشفاء على الموت[1].

وفي قوله «مَنْ راق؟» استفهام، وهذا «الاستفهام يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيباً يشفيه وراقياً يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار، كما يقول القائل عند اليأس من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت»[2].

ثم يقول تعالى: «وظنّ أنه الفراق»، عبّر النظم القرآني بـ (الظنّ)، وقد «سُمّي اليقين ههنا بالظن لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقاً ببدنه فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)، ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم»[3].

وفي قوله تعالى: (والتفّت الساق بالساق) يُحتمَل أن تكون الآية كناية عن الشدة والكرب، أو أنها تصف التفافاً حقيقياً للساقين عند الموت. يقول الإمام الرازي:

"وفي الساق قولان القول الأول أنه الأمر الشديد قال أهل المعاني لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمّر لها عن ساقه، فقيل للأمر الشديد "ساق"، وتقول العرب: "قامت الحرب على ساق" أي: اشتدت.... والمراد بقوله: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) أي التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب، أو التفت شدة ترك الأهل وترك الولد وترك المال وترك الجاه وشدة شماتة الأعداء وغم الأولياء وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله، أو التفت شدة ترك الأحباب والأولياء وشدة الذهاب إلى دار الغربة. والقول الثاني: أن المراد من الساق هذا العضو المخصوص، ثم ذكروا على هذا القول وجوهاً (أحدها) قال الشعبي وقتادة هما ساقاه عند الموت أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى (والثاني) قال الحسن وسعيد بن المسيب هما ساقاه إذا التفتا في الكفن (والثالث) أنه إذا مات يبست ساقاه والتصقت إحداهما بالأخرى"[4].

ويُلحَظ في هذه الآيات التصوير القرآني البديع لحالة الموت ووصف أدق لحظاته وأبرز أبعاده في الداخل والخارج. تصوير للحالة النفسية التي عليها المحتضر. اليقين والظن الأكيد بالفراق والمغادرة. اليأس الكاتم على أنفاسه، هذه صورته من داخل نفسه. وتصوير لهيئته الخارجية،

---

(١) انظر: التفسير المنير، د.وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٩هـ ٢٩/ ٢٧٠.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٠٤.
(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٠٤، ٢٠٥.
(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٠٥.

هيئته الجسمية.تلتف الساق على الساق وتعتصره كرب الموت وسكراته. تصوير للذهول والفزع الذي يخبط فيه أهل المحتضر في بحث دائب وتساؤلات حيرى وتشبث بأوهى الأسباب. كل هذا بأوجز العبارات وأقصر الألفاظ.

وجواب «إذا» في جملة الشرط محذوف، تقديره: وجد ما عمله في الدنيا من خير أو شر[1]. ويمكن أن يقال عن غرض الحذف هنا إنه ينطبق عليه ما يذكره الخطيب القزويني في حذف جواب الشرط من أن ذلك للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه[2]. أي أن هذا الحذف يأتي لزيادة تهويل تلك اللحظات وذلك اليوم.

ثم يقول تعالى بعد ذلك: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]. يصف النظم القرآني في هذه الآيات حال الكافر يوم أن يساق إلى الله تعالى، وهو لم يصدّق ولم يصلّ في حياته الدنيا، بل كذب وأعرض عن الطاعة، يتبختر في مشيته.

وفي الآيتين إيجاز بحذف المتعلّقات، أي: فلا صدّق ما يجب تصديقه، أو فلا صدق ماله أي لم يدفع زكاته، ولا صلى ما فرض عليه، ولكن كذب وتولى عن الطاعة[4].

وفي قوله «يتمطّى» كناية عن التبختر. قال الإمام البيضاوي: «ثم ذهب إلى أهله يتمطّى»: يتبختر افتخارا بذلك من المطّ، فإن المتبختر يمد خطاه، فيكون أصله «يتمطط»[5]. وبهذا القول يظهر العدول في الآية عن أصل كلمة «يتمطط» إلى كلمة «يتمطى». وذلك لما يحققه صوت المد من تصوير لحالة التبختر التي يتمطى فيها الإنسان ويتميّع. هذا بالإضافة إلى تحقيق تناسب الفواصل بين الآية وما قبلها، والآية وما بعدها.

ثم يأتي قول الله تعالى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾[6]، وهي آية يذكر السيوطي في سبب نزولها عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه لما نزلت آية ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[7] قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ١٠/ ٣٥٢.
(٢) انظر: الإيضاح، الخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ص ١٧٩.
(٣) سورة القيامة ٢٩ – ٣٣.
(٤) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٤.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٢٤.
(٦) سورة القيامة ٣٤ – ٣٥.
(٧) سورة المدثر، ٣٠.

وأنتم ألدّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟. فأوحى الله لرسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى»[1].

وهذه الآيات تهديد من الله للكافر عموماً، ولأبي جهل خصوصاً. ويأتي التهديد مستفاداً من تكرير القرآن للّفظة التي تدل على التهديد مرتين، وهي قوله: «أولى لك فأولى». «وقيل بل كررها أربع مرات، فإن قوله «أولى» تامّ في الذم. بدليل قوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2]. فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه للتهديد»[3].

ثم يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[4].

إن هذه الآيات تأتي بعد أن وصف القرآن فيما مر ساعة الاحتضار والموت، حيث الإقبال على الآخرة، فينتقل الحديث بهذه الآيات إلى الجهة المقابلة وهي ساعة الولادة حيث الدخول إلى عالم الدنيا. يتحدث القرآن عن الإنسان يوم كان نطفة من مني يمنى عبر عدد من الاستفهامات تتتابع، ابتداء بالاستفهام الإنكاري: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟»، ومروراً بالاستفهام التقريري: «ألم يك نطفة من مني يمنى؟». وانتهاء بآخر الاستفهامات: «أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟». وكل هذه الاستفهامات تنفي أن يُترَك الإنسان «هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولايعاقب»[5]. وذلك للتأكيد على إثبات حقيقة البعث والجزاء يوم القيامة.

وفي قوله تعالى: «ثم كان علقة فخلق فسوّى» حُذِف المفعول به في: «خلق» و«سوّى». والمعنى: أي كان علقة ثم مضغة ثم شكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقا آخر سويا سليم الأعضاء ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره[6]. وتقدير الكلام: كان نطفة ثم علقة ثم سواه بشرا سويا ناطقا سميعا بصيرا[7].

إن القرآن هنا يقرّر حقيقة النشأة الإنسانية يوم كان نطفة من ماء مهين، ثم علقة أي قطعة من دم غليظ، ثم خلقه الله في أجمل صورة فجعله صنفين: الذكر والأنثى. هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، وهذا التذكير بهذا الأصل لبيان ضعف الإنسان وحقارة حاله، لأجل أن

---

(١) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص٢٢٥.
(٢) سورة محمد، ٢٠. وتمام الآية: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ..﴾.
(٣) أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، مصر، ص ٢١٢.
(٤) سورة القيامة ٣٦ – ٤٠.
(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٤٢.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري ٢٩/ ٢٠١.

يخلّص من ذلك إلى هذا التساؤل الحادّ: كيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله. هذا هو الغرض الأول الذي أراده القرآن لذكر أصل النشأة والله أعلم.

أما الغرض الثاني فتنص عليه الآية الأخيرة عبر تساؤلها الاستنكاري: «أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟!!». أي أليس من أنشأ الإنسان في أحسن صورة – بعد أن كان مهين الأصل حقير النشأة، وبعد أن كان عدماً لاوجود له – قادراً على إعادته ثانية؟.

هكذا تنتهي السورة بهذا التساؤل المدوي الذي سار فيه الأسلوب القرآني متدرّجاً بما لا يماري فيه أحد، حتى وصل إلى طرح هذا السؤال الأخير، ليترك الفرصة لمن كان له قلب أن يعيد النظر في أصل خلقته، فيتفكر أوَ عبثاً يمكن أن يكون كل هذا؟. أم أن وراء الحياة حياة أخرى؟!!.

ثالثاً : الظواهر التعبيرية في الآيات:

يظهر في آيات السورة ظواهر تعبيرية تكرّرت أكثر من مرة، وسأقف في هذه السطور عند بعض تلك الظواهر محاولاً الكشف عن قيمتها البلاغية. وتلك أبرزها:

– تلجأ الآيات إلى الصورة الكلية التي تتضمّن عدداً من الجمل تشكّل في مجموعها صورة يتأمّلها الخيال ويرتسم في الذهن بعض ملامحها. ويظهر هذا النوع من الصور في ثلاثة مواضع من السورة. الموضع الأول هو وصف ما يحصل في الكون عند قيام الساعة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾[1]. حيث تُصوّر الآيات حال البصر وهو يبرق حيرة وفزعاً مما يحدُث في الكون، وصورة القمر وقد خسف واجتمع مع الشمس، ثم ردّ فعل الإنسان على هذه التغيّرات حيث يُصاب بحالٍ من الرعب والخوف أن يصيبه البلاء والأذى، فيصرخ: أين المفر؟.

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ ﴾[2]، حيث تصوّر الآيات وجوه المؤمنين وقد علاها النضرة والبهاء والجمال، وهي تستمتع بلقاء ربها والنظر إليه، ووجوه الكافرين وهي في غاية العبوس، واليقين مما ينتظرها من آلام وعذاب.

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ ﴾ ، حيث تُصوّر هذه الآيات حال الإنسان عند احتضاره، حيث تبلغ الروح الحلقوم، ولا ينجيه من الموت راق ولا غيره، وقد التفّت الساق بالساق من شدة ما يعاني من سكرات الموت.

---

(١) الآية : ٧ – ١٠.

(٢) الآيات ٢٢ – ٢٥.

إن تأمّل هذه المواضع يكشف كيف أنها تتضمن ترغيباً أو ترهيباً، ترغيباً بحال المتّقين، وترهيباً من أهوال القيامة ولحظة الاحتضار وحال الكافرين، ولاشكّ أن الإنسان يكون أكثر امتثالاً وانقياداً واستجابة إذا كان الأمر المرغوب أو المرهوب مرئياً مشاهداً، ولهذا جاء التصوير القرآني هنا لإبراز هذه الأمور في عيني الإنسان كأنما يراها رأي العين، ليكون أكثر ارتداعاً واستعداداً واستجابة لما تتضمنه الآيات.

- تعتمد الآيات أيضاً على الاستفهام المجازي كثيراً، سواء أكان ذاك الاستفهام في كلام الله الخالق جلّ وعلا، أو في كلام الإنسان المخلوق. وهذه الاستفهامات في كلام الله جلّ وعلا تدور حول حال الإنسان منذ فترة الميلاد: «ألم يكُ نطفة من منيّ يمنى؟»، ومروراً بفترة البعث: «أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظامَه؟ - أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى؟»، وانتهاءً بفترة الحساب: «أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى؟».

واستعمالها مع بدهية خلق الإنسان من نطفة، ثم مع البعث والحساب، يدلّ على أن ما استفهمت عنه الآيات هو من البدهيّات، البدهيات التي جاءت الأديان السماوية كلّها للتأكيد عليها، وهي ضرورة بعث الإنسان من قبره، ثم محاسبته على ما عمل، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

كما أن هذه الاستفهامات المجازية جاءت أيضاً في كلام الإنسان لتكشف عن استكباره واستهتاره عندما يسأل في حياته الدنيا وفي حال القدرة والقوة والنشاط: (أيان يوم القيامة؟). ثم يأتي الاستفهام المجازي عند نزول الموت به والناس في فزَعٍ يبحثون عن شفاء ودواء، فيسألون: (مَنْ راقٍ؟). ثم يومَ القيامة إذا انقلب الكونُ وتغيّرت مظاهره ونواميسه يصيبه الهلع والرعب فيتساءل: (أين المفر؟).

- يُلحظ في الآيات أيضاً تكرار بعض الألفاظ. فمثلاً لفظ (يوم القيامة) تكرّر أكثر من مرّة، إما بلفظه (مرّتين) كما في قوله تعالى: «لا أقسم بيوم القيامة»، وقوله: «يسأل أيان يوم القيامة»، أو بلفظ «يومئذ»، وقد ورَدت خمس مرات في الآيات التالية: «يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر» - «يُنبّأ الإنسانُ يومئذٍ بما قدّم وأخّر» - «وجوه يومئذ ناضرة» - «ووجوه يومئذ باسرة» - «إلى ربّك يومئذٍ المساق». وهذا التكرير يراد به التأكيد على حضور يوم القيامة وتصور أهواله حتى يتزلزل كيان السامع مع كل مرة يذكر فيها ذلك اليوم لعله يتّعظ أو يعتبر.

كما يَرِد لفظُ «الإنسان» في السورة ست مرّات، وذلك في الآيات التالية: «أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه» - «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه» - «يقول الإنسان يومئذ أين المفر» - «ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر» - «بل الإنسان على نفسه بصيرة» - «أيحسب الإنسان

أن يُترَك سُدى». وإذا كان تكرار لفظ القيامة صريحاً أو غير صريح لأنه موضوع السورة، فإن تكرار الإنسان يأتي لأنه هو الذي ينكر ذلك اليوم، ويكذّب وقوعه. ولهذا جاء الإسناد إليه صريحاً بلفظه الظاهر أكثر من مرة لتأكيد وقوع تلك الأشياء التي أشارت إليها الآيات مع ذلك الإنسان المستكبر المعاند.

– يُلحظ في الآيات أيضاً تغييب الفاعل كثيراً، إما بحذفه مع الفعل المبني للمعلوم، أو ببناء الفعل للمفعول. حيث يُحذَف الفاعل مع ما تحته خط في الآيات التالية: «كلاّ إذا بلغت التراقي – وقيلَ مَنْ راقٍ – وظنّ أنه الفراق – فلا صدّق ولا صلّى – ولكن كذّب وتولّى – ثم ذهب إلى أهله يتمطّى». ويأتي الحذفُ في هذه المواضع جميعاً، للتركيز على الفعل ذاته بغض النظر عن فاعله، فليس مهماً مَنْ يقع منه الحدث، بقدر الأهمية التي تريد الآيات من خلالها إبراز الحدث نفسه.

وقد يُحذَف الفاعل للعلم به، كما يظهر في الآيات التالية: «جُمِع الشمس والقمر – يُنبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر – فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى». فهذه الأفعال يُعرَف بأن فاعلها هو الله جلّ جلاله، فلم تحتجْ لذلك إلى ذكر الفاعل معها، فحذف الفاعل لتعيّنه وعدم احتمال غيره.

وكذلك حُذِف الفاعل في قوله تعالى: «تظنّ أن يُفعَل بها فاقرة». حيث استعملت الآيةُ الفعلَ المبني للمجهول: « يُفعَل »، وذلك جرياً على عادة الأسلوب القرآني في عدم إسناد المعاني السلبية إلى الله جل وعلا. وهو ما قرّره الإمام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: «لا يجيء في كلام الله ولا كلام رسوله صلى الله عليه وسلم إضافة الشرّ وحده إلى الله، بل لا يُذكَر الشرّ إلا على ثلاثة وجوه: إما أن يدخل في عموم المخلوقات، وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل، وإما أن يُحذَف فاعله»[1]. فالمعنى السلبيّ إما أن يأتي داخلاً في العموم، أو مسنداً إلى سببه على المجاز العقلي، أو محذوف الفاعل كما في قوله تعالى: «أن يُفعَل بها فاقرة»، فحذف الفاعل تأدّباً مع الله جلّ وعلا بعدم إسناد هذا الفعل إليه، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾[2]. حيث ذكر الفاعل مع الفعل الإيجابي (إرادة الرشد)، وحذفه مع الفعل السلبي (إرادة الشرّ).

– اعتمدت الآيات كثيراً على التقديم والتأخير، وهذا التقديم إما أن يكون للدلالة على الاختصاص كما في قوله تعالى: « إلى ربك يومئذ المستقر – إن علينا جمعه وقرآنه – إن علينا بيانه – إلى ربها ناظرة – إلى ربك يومئذ المساق». فهذه المواضع (التي تحتها خط) تدلّ على اختصاص المتقدّم بما بعدها.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ٨/ ٩٤.

(٢) سورة الجن، ١٠.

وإما أن يأتي التقديم لإبراز المقدَّم والاعتناء بشأنه، وهو مايظهر فيما تحته خط في الآيات التالية: «يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ - إلى ربك يومئذ المستقر- بل الإنسان على نفسه بصيرة - لا تحرّك به لسانك- وجوه يومئذ ناضرة - ووجوه يومئذ باسرة - إلى ربك يومئذ المساق- ثم ذهب إلى أهله يتمطّى - فجعل منه الزوجين».

- تأتي فواصل السور القرآنية إما مبنية على رويّ واحد، أو أن يتنوع رويّ الفواصل ويختلف. وبهذا فالفواصل ذات الروي الواحد تسير وفق قانون «النظام» الواحد، في حين أن تنوّع الفواصل يسير وفق قانون «التغيّر». وفي كلا الطريقين جمال لا يخفى، ذلك «أن العامل الأساسي الذي يقوم عليه قانون «النظام»... هو إثارة التوقع وإشباع هذا التوقّع. بعكس العامل الذي ينهض عليه قانون «التغيّر»، ألا وهو إحداث الصدمة للتوقّع عن طريق المفاجأة السارّة... إن التأثير الذي تولّده المفاجأة يعتمد على ما إذا كان العنصر الجديد يمكن استيعابه في الاستجابة الكلية، أو إذا كان الذهن مضطرّاً إلى أن يبدأ بداية جديدة كلية عند وصول هذا العنصر الجديد، وبعبارة مألوفة نقول: إن التأثير يعتمد على ما إذا كانت هناك علاقة تربط بين الأجزاء التي تؤلّف الكلّ»[1].

وإذا نظرنا إلى فواصل سورة القيامة سنجدها تسير وفق القانون الثاني، قانون «التغيّر»، وهذا التغيّر يربط الأجزاء ببعضها، لتحقّق الهدف والمعنى الكلي للسورة. حيث يُلحظ استعمال رويّ موحّد في تلك الآيات التي تحمل فكرة مستقلة تقريباً، بحيث تكون هذه الفواصل المتّفقة بمثابة خيط يصل الجمل التي تدور حول معنى واحد، فتكون بذلك الوحدة المعنوية الواحدة متّصلة في المعنى والمبنى.

ولننظر مثلاً في بعض الآيات للتحقّق من ذلك، فعند الحديث عن التأكيد على وقوع يوم القيامة، يأتي رويّ الفاصلة تاءً مربوطة تتحوّل عند الوقف إلى هاء â لا أقسم بيوم القيامة... إلخ (وعند وصف أمارات يوم القيامة يتحوّل رويّ الفاصلة إلى حرف الراء) فإذا برق البصر... إلخ (، وعند الحديث عن حفظ القرآن وجمعه يأتي رويّ الفاصلة هاءً) إن علينا جمعه وقرآنه.. إلخ.. وهكذا تسير السورة إلى نهايتها، بحيث تأتي الفواصل لتعطي الذهن انطباعاً بالانتقال من فكرة إلى أخرى.

أخيراً .. تلك كانت أبرز الوقفات البلاغية التي تمكّنت من رصدها، وما قلناه هنا ليس إلا غيضاً من فيض، وقطرة من بحر البلاغة القرآنية، إذ لا شكّ أن بلاغة القرآن تنطوي على الكثير

(١) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ط٢، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

والكثير من الأسرار والدقائق واللطائف، ولكن لعلّ هذه الصفحات استطاعت أن تقف ولو على شيء يسير من بيان القرآن وبلاغته.

في الختام أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن يزيدنا علماً، إنه هو العليم الحكيم، وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس المصادر والمراجع :

١. **القرآن الكريم.**

٢. **أسباب النزول** ، الواحدي، عالم الكتب ، بيروت ، دون تاريخ.

٣. **أسرار التكرار في القرآن**، محمد بن حمزة الكرماني تحقيق: عبد القادر أحمد عطا دار الاعتصام – مصر رقم الإيداع ٧٧/١٧٩٤.

٤. **أسرار خلق الإنسان**، د.داود سلمان السعدي، دار الحرف العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ، ط٣.

٥. **أضواء البيان**، محمد الأمين الشنقيطي، طبع رئاسة البحوث والإفتاء، الرياض، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٦. **أيسر التفاسير** ، أبو بكر جابر الجزائري طبعة خاصة بالمؤلف ١٩٩٣/١٤١٤.

٧. **الإيضاح** ، الخطيب القزويني دار إحياء العلوم – بيروت دون تاريخ.

٨. **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي المكتبة التجارية مكة – د.ت.

٩. **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤.

١٠. **تجريد البيان لتفسير القرآن**،عبد الله إبراهيم الأنصاري، مكتبة الملك عبد العزيز – الرياض – د.ت.

١١. **تفسير ابن كثير**، أبي الفداء إسماعيل بن كثير دار الفكر – بيروت دون تاريخ.

١٢. **تفسير أبي السعود**،أبو السعود محمد بن محمد العمادي دار إحياء التراث– بيروت.

١٣. **تفسير البيضاوي**، الإمام البيضاوي، دار الفكر، بيروت.

١٤. **التفسير البياني للقرآن الكريم** ، د.عائشة عبدالرحمن دار المعارف القاهرة .

١٥. **تفسير الثعالبي**، عبدالرحمن بن محمد الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ، د.ت.

١٦. **تفسير الخازن وبهامشه البغوي** المكتبة التجارية الكبرى – مصر، د.ت.

١٧. **تفسير الطبري** ، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ، ١٤٠٥هـ.

١٨. **التفسير المنير**،د.وهبه الرحيلي دار الفكر المعاصر – بيروت ١٤٠٧.

١٩. **حاشية الشهاب على البيضاوي** ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٧/ ١٩٩٧.

٢٠. **حاشية محيي الدين الشيخ زاده على البيضاوي**. المكتبة الإسلامية – ديار بكر – تركيا.

٢١. **الدر المنثور**، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ٨/ ٣٤٩

٢٢. **روح المعاني**، شهاب الدين محمود الألوسي دار إحياء التراث – بيروت

٢٣. **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم – بيروت.

٢٤. **الفاصلة في القرآن**، محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ ط٢.

٢٥. **فتح الباري**، ابن حجر العسقلاني، تبويب وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

٢٦. **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني دار إحياء التراث – بيروت .

٢٧. **في ظلال القرآن**، سيد قطب دار العلم، جدة، ١٤٠٦/١٩٨٦.

٢٨. **الكشاف**، جار الله محمود الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

٢٩. **لباب النقول**، جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٧٩.

٣٠. **مجمع البيان في تفسير القرآن**، أبو على الفضل الطبرسي – دار مكتبة الحياة ١٣٨٠/١٩٦١.

٣١. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.

* * *